عبد الرحمن خان

اذا ذُكر القوّاد العظام الذين جمعوا شمل القبائل وانشأوا منها الممالك وتركوها عزيزة الجانب فالامير عبد الرحمن المتوفّى الى رحمة مولاهُ واحد منهم وسيذكرهُ الافغان بالخير ما تعاقب الملوان

وهو بكر الامير محمد افضل وحفيد الامير دوست محمد وابن اخ الامير شير علي امير افغانستان السابق . لما توفي الامير دوست محمد سنة ١٨٦٣ اوصى بالامارة بعدهُ لابنهِ شير علي مع ان الامير محمد افضل اكبر منهُ سنًّا واوصى ابنيهِ محمد افضل وعظيماً ان يطيعا اخاهما ويبقيا على ولائهِ . وكان الامير عبد الرحمن يشغل منصباً في تركستان فابقى فيهِ . ولم يكن نجيباً في حداثتهِ . قال مرة للورد كرزن حاكم الهند الآن انهُ بلغ العشرين قبلما تعلم القراءة . وكتب في تاريخ حياتهِ يقول " كنت احاول النهار كلهُ ان اقرأ واكتب فلا استطيع تحمل ذهني ولاني كنت مولعاً بركب الخيل والصيد "

وتزوج ابنة خان بدخشان وهو في تركستان وصار لهُ شأن كبير عند الازبك سكان تلك البلاد . وخرج ابوهُ وعمهُ على اخيهما شير علي فوازرهما بالجند وكان لهُ اليد الطولى في خلع عمهِ فتولى ابوهُ الامير محمد افضل مكانهُ ولجأ شير علي وابنهُ يعقوب الى هرات

وتوفي الامير محمد افضل وخلفهُ اخوهُ الامير عظيم فلم يقع توليهِ موقعاً حسناً لدى قبائل الافغان ولم يستتبّ لهُ الامر حتى عاد شير علي وابنهُ يعقوب بجيش ضخم وطرداهُ ومعهُ ابن اخيهِ الامير عبد الرحمن . وتوفي الامير عظيم في القفر ولجأ عبد الرحمن الى بخارى ثم الى سمرقند واستتبّ الامر لشير علي من سنة ١٨٦٨ الى سنة ١٨٧٨ لكنهُ مالأ الروس حينئذٍ ورحّب بسفارة مرسلة اليهِ من روسيا فطلبت انكلترا منهُ ان يقبل سفارة انكليزية مثلها في كابول عاصمتهِ فابى ونشبت الحرب بينهُ وبين الانكليز فتغلبوا على جلالاباد وقندهار فهرب من كابول الى تركستان وتوفي في مزار الشريف في اواخر فبراير سنة ١٨٧٩ ونودي بابنهِ يعقوب خان اميراً على افغانستان . وأُمضيت شروط الصلح بينهُ وبين الانكليز في ٢٦ مايو تلك السنة على ان تقيم انكلترا نائباً لها في كابول وتحمي الافغان من اعتداء الاجانب عليهم وتدفع راتباً سنوياً لاميرهم لكن جند الامير ثار بعد قليل وقتل نائب انكلترا ورجالهُ فأنفذ اللورد روبرتس بستة آلاف مقاتل للاقتصاص منهم ففتح كابول عنوةً وتنازل يعقوب خان حينئذٍ واحتمى بالانكليز وقام ايوب خان اخوهُ الاصغر ونادى بالجهاد ضد الانكليز والتحن في جنودهم فاستعان الانكليز بعبد الرحمن عليهِ ومزقوا شملهُ ونصبوا عبد الرحمن اميراً على الافغان وتركوهُ

ليخضع البلاد بسيفهِ وذراعهِ ولم يساعدوهُ الاَّ بقليل من الاسلحة والميرة

وكان القائد محمد جان قائمًا بدعوة موسى خان بن يعقوب الاصغر وكذلك كانت قبائل غلجائي الشديدة الحول والطول غير راضية عن الامير عبد الرحمن ولم يكن في البلاد كلها قبيلة يثق بها لكن السعد خدمهُ فقبض على محمد جان ووضعهُ في سجن لم يخرج منهُ واوقع بباقي خصومهِ الواحد بعد الآخر حتى افنامهم وتعقب قبائل غلجائي حتى بدَّد شملها والجأها الى الطاعة . وعاد ايوب خان ولم شعثهُ وحاول اخذ قندهار سنة ١٨٨١ وفاز اولاً بعض الفوز لكن عبد الرحمن قهرهُ اخيرًا واستولى على هرات فهرب ايوب خان الى ايران ونقل منها الى الهند وبالاستيلاء على هرات استتبَّ النصر للامير عبد الرحمن على بلاد الافغان كلها ولكن الانكليز لم يؤيدوا سلطتهُ فيها الاَّ لما تمَّ النصر للروس على التركمان شرقي بحر قزبين وخيف من سيرهم على مرو فرأوا حينئذٍ ان لا بدَّ لهم من شد ازرهِ ليبقى حاجزًا حصينًا بينهم وبين الروس فقطعوا لهُ راتبًا يبلغ نحو عشرة آلاف جنيه في الشهر ثم جعلوهُ خمسة عشر الف جنيه في الشهر فاشتد بهم ازرهُ وجعل ينفق هذا المال في ابتياع الاسلحة وبني دور صنعة في بلادهِ لعملها

واستولى الروس على مرو سنة ١٨٨٤ فصاروا على حدود الافغان ورأى الامير عبد الرحمن انهُ لا يخيبهِ منهم الاَّ الانكليز فلجأ اليهم لتعيين الحدود بين بلادهِ وبلاد الروس . وكان حريصًا على تعيين الحدود بين بلادهِ والبلدان المجاورة لها حتى لا يعتدي احد عليهِ ممن هم اقوى منهُ اما القبائل الضعيفة المجاورة لهُ فلم يرَ حيفًا في ضم بلادها الى بلادهِ . ويظهر حرصهُ على بلادهِ من انهُ منع الشركات التجارية والصناعية من دخولها لان ما جرى في بلاد الهند علمهُ ان هذه الشركات تدعو الى مشاكل وراءها السيف والمدفع . وهو مصيب في هذا المنع ولو كرههُ الاوربيون . وخيرٌ للامم الشرقية ان تتعلم اساليب الصناعة والتجارة بنفسها ولو تدرَّجت اليها تدرُّجًا بطيئًا جدًّا من ان تتعلمها بسرعة من امم تفقدها استقلالها . ولهذا السبب عينهِ كان يمنع الاوربيين من السياحة في بلادهِ الاَّ اذا كانوا من ذوي الشأن الذين يستطيعون ان يأخذوا الحرَّاس معهم ويحامي الاهالي جانبهم لرفعة شأنهم . واما عامَّة السياح فلا يبيح لهم ان يضربوا في بلادهِ مخافة ان يحلَّ بهم مكروهٌ فيكونوا عليهِ كنافة البسوس

وزار بلاد الهند في عهد لورد دفرن وقوبل باحتفال عظيم ووقف في الوليمة التي اولمت لهُ واستلَّ سيفهُ وخطب خطبة وجيزة وقال انهُ يحارب كل اعداء الدولة البريطانية بذلك السيف وكان ذلك امام لورد دفرن ودوق كنوت ابن ملكة الانكليز وكثيرين من امراء الهند وقواد الجيش

وسنة ١٨٨٨ خرج عليهِ ابن عمهِ اسحق خان وكان قد ولاهُ تركستان ورأى منهُ ما رابهُ

ودعاهُ اليهِ الى كابول مرارًا فلم يلبِّ الدعوة مخافة ان يحلَّ بهِ ما حلَّ بغيرهِ واخيرًا عيل صبر الامير عبد الرحمن فجيش جيشًا لمحاربتهِ فلقي اسحق خان هذا الجيش واثخن فيهِ وسوَّلت لهُ نفسهُ الهجوم على كابول فالتقاهُ الامير عبد الرحمن بنفسهِ بجيش اضخم من الاول ونكَّل بهِ تنكيلاً ففرَّ بشرذمة من رجالهِ ولجأ الى الروس في سمرقند

وظلَّ الامير عبد الرحمن سائرًا الى ان بلغ تركستان واقام فيها سنتين حتى اصلح امورها وترك مقاليد الاحكام في كابول بيد ابنهِ حبيب الله قرَّتهُ على سياسة البلاد

وعاد الى كابول سنة ١٨٩٠ وجرى من الافعال في جهات شنوال ما جعل الانكليز يوجسون شرًّا فدعوهُ الى بلاد الهند على ان يذهب لورد روبرتس بعد ذلك الى بلادهِ فلم يلبِّ دعوتهم ولا قبل بذهاب لورد روبرتس الى بلادهِ . ولبُعد شقة جدال طويل في هذا الشأن قبل ان يزورهُ السر مورتمار دورند واستقبلهُ استقبالاً حافلاً جدًّا وحلَّ معهُ كثيرًا من المشاكل

ومنحتهُ ملكة الانكليز نشان الحمَّام من الطبقة الاولى ويقال انهُ عزم حينئذٍ على ان يزور انكلترا و يشكرها بنفسهِ ثم عدل عن ذلك وبعث ابنهُ نصر الله خان وغرضهُ ان يقنع الحكومة الانكليزية بان يكون لهُ سفير في لندن ينظر في امور بلادهِ حتى لا تبقى علاقتهُ ببلاد الهند بل تصير مع لندن رأسًا فلم تجبهُ الحكومة الانكليزية الى ذلك . وقد غاظهُ هذا الامر كثيرًا واشار اليهِ في تاريخ حياتهِ بمرارة لكنهُ بقي على ولائهِ للانكليز واثبت ذلك بالفعل وقتما ثارت قبائل شنوال عليهم

وقد انفق الاموال التي قطعتها لهُ الدولة الانكليزية في تعبئة الجنود وتدريبهم على الفنون الحربيَّة وتجهيزهم باحدث البنادق والمدافع وعاش بالاقتصاد حتى يقوي جيشهُ حفظًا لبلادهِ من غارات الاعداء لكنهُ بقي حتى ادركتهُ الوفاة يحسب ان سلامة بلادهِ قائمة ايضًا بمصادقتها للدولة الانكليزية و بث ذلك في نفس ابنهِ ولي عهدهِ كما يظهر من وصيتهِ التي اوصاهُ بها

لكن الجند لا يكون سياجًا للمملكة ما لم يكن فيها رجال اكفاء ولا تستتب الراحة لاهلها ولا ينعم عيشهم الاَّ اذا توفَّرت لهم المصالح وقد كان الامير عبد الرحمن يعلم ذلك فلم يكتفِ بانشاء معامل المدافع والبنادق بل مهَّد السكك ونشط اسباب الزراعة والصناعة ونشر راية الامن في البلاد كلها دانيها وقاصيها فكانهُ استعمل جنودهُ لارهاب اهل البغي والفساد الذين لم يألفوا غير الحرب والغارات حتى ان البلاد القاصية التي لم ترَ جنودهُ ولا خضعت لامير قبلهُ خشيت بأسهُ وخلدت الى السكينة

وقد ساعدهُ على ذلك خلق مغروس في نفسهِ وهو خلق التنظيم والتدبير فانهُ جعل لكل

يوم ولكل ساعة عملاً خاصاً وكان من اكثر الرجال شغلاً واشدهم نشاطاً بل كان هو الوزير لكل الوزارات وكان طويل القامة كبير الفضل جبّاراً من الجبارة اسود العينين جميل الطلعة ارى الملائح يدّعي انهُ من نسل الاسكندر المكدوني وليس ذلك بمستبعد لان اليونان والآريين من اصل واحد . والظاهر انهُ ترفه بعض الترفُّه بعد ان بلغ سن الكهولة فمال الى السمن واعتراهُ النقرس واشتدَّت وطأتهُ عليهِ حتى قطع الاطباء الرجاء من سلامتهِ منذ بضع سنوات . وعلم ان اجلهُ قريب فدرَّب ابنهُ حبيب الله على تولي شؤون البلاد حتى اذا حضرتهُ الوفاة اغمض جفنيهِ مطمئنّاً على بلادهِ وملكهِ . وكتب لهُ وصيَّة مسهبة من خير ما اوصى بهِ الملوك ابناءهم والحكماء تلامذتهم وقد تناقلتها الصحف منذ مدة فرأينا ان نثبتها هنا كما رأيناها في كتاب نُخبة البيان

"ولدي العزيز — لا يخفى عليك انني سلمت لك زمام الحكومة في مدة حياتي وان هذا العمل بلا شك مخالفٌ لنظام الحكومات ومعاملات الدول الاوربية في الغرب والسلاطين في الشرق . ولكن غرضي من ذلك هو ان اعلمك كيف تحكم وكيف تفعل لكي تكون على بصيرة وحكمة حينما يصل اليك الملك وترقى على عرش هذه الدولة . ولي في ذلك ايضاً غرض آخر وهو ان يعرف مقامك رؤساء القبائل الافغانية فيخشوا بأسك ويخضعوا لرأيك

والآن اريد ان القي على مسامعك بعض كلمات في قالب النصيحة واعتقد انك اذا سرت على خطتها تأمن على سلامة بلادك ولا ترتكب خطأً في حكومتك يؤدي الى ضياع نفوذك وهذه نصيحتي اليك

(١) يجب عليك يا بنيَّ ان تتمسك بمبادىء دينك الشريف فتجعل لهُ المقام الاول وتنظر الى الواجبات الخاصة بهِ قبل نظرك الى اشغالك وسياستك وبعبارة أُخرى يجب عليك ان تكون قدوة حسنة في التقى والتدين لكل افراد رعيتك

(٢) يجب عليك ايضاً ان توجه عنايتك الى سعادة أُمتك وراحة رعيتك وتوطيد دعائم السلام والسكون في ارجاء بلادك . ولتعلم ان نجاح البلاد وفلاحها متوقفان على الثروة وان الثروة والنفوذ لا يُدركان بغير وسائط الزراعة والتجارة والصناعة وان هذه الوسائل تحتاج في ترقيتها وانجاحها الى التعليم والتربية العمومية

ان امتنا يا بنيَّ لا تزال في الدرجة الاولى من درجات المدنية ولم يوجه أفرادها أنظارهم الى تحصيل العلوم وتربية الافكار ولقد كانت أمالي القلبية موجهة الى تشييد المدارس وارسال انوار العرفان الى سائر الاقطار الافغانية على طريقة المدارس ودور الفنون الموجودة

في البلاد التربية . ولكن مثل هذه الغاية لا تُدرك بمجرد الارادة ولا تحقق في زمن قليل لانها تحتاج الى النمو والترقية التدريجية وحينئذٍ يلزمك ان توجه عنايتك التامة الى هذه النقطة المهمة وان تعتقد ان من أقدس الواجبات عليك هو ان تبعث في نفوس رعيتك ميلاً الى التربية والتعليم

(٣) حيث انك ستستلم زمام الاحكام بيديك وتكون انت افضل الرجال في هذه الديار واسماهم عقلاً واكبرهم فكرًا واعلاهم مقامًا فتحسن معاملة أتباعك ومن تحت حكمك . عامل رعيتك باللطف والمحبة الابوية ليعتقدوا اعتقادًا ثابتًا في شفقتك عليهم وحرصك على سعادتهم وراحتهم اذ هذا العمل يزيد في محبتهم لك ويجعلك أسمى مكانة في اعينهم . ولكن لا يجب ان تعامل الاجانب بمثل هذه المعاملة الابوية لانها تزيد في جسارتهم ووقاحتهم

(٤) يجب عليك ان تقدر اعمال رجالك ولا تنسَ فضل الفضلاء منهم فتكافئهم لان ذلك يقوّي عزائمهم وينشطهم على خدمتك بالدقة والاخلاص والاستقامة

(٥) لتكن بعيدًا عن المحاباة والمجاملة في انصاف المظلوم من الظالم ومعاقبة المجرم على جريمته ولو كان المذنب ولدك وفلذة كبدك واعرف انك بذلك تسترق القلوب وتستعبدها

(٦) لا تمكن الاجانب من فرصة ينالون بها حقًّا من الحقوق او نفوذًا كيف كان لانك ان ملكتهم قليلاً من الفرصة فانك تمهد لهم الطريق الى خراب مملكتك وضياع بلادك

(٧) حيث ان الحكومة الانكليزية بقيت معي الى هذا العهد مسالمة مصافية فكن معها كما كنت انا . ولكن على اي حال ضع نصب عينيك سلامة افغانستان واستقلالها

(٨) ليكن من اول الواجبات التي تكلف نفسك بها حماية مصالح رعاياك في كل حال من الاحوال

(٩) اما ما يختص بالمسائل السياسية فيجب عليك ان لا تركن فيها الى وزرائك واعوانك بل يجب عليك ان توجه اهتمامك لكل شيء صغيرًا كان او كبيرًا بنفسك

(١٠) واما ما يتعلق بالمسائل الحربية فاعلم انهُ يلزمك ان تكون قواتك الحربية على قدم الاستعداد كأنما تريد ان تزحف بها في الغد الى ساحة القتال لمحاربة دولة اقوى منك جاشًا واكثر منك عددًا وعددًا . واعلم يا بنيّ ان الايام علمتنا دروسًا يجب ان نستفيد منها فقد عرفنا ان من اول الضروريات ان يكون الجيش دائمًا على اهبة الاستعداد التام . ثم لا تنسَ زيادة الآلات والذخائر الحربية في زمن السلم لانهُ كما لا يخفى عليك من الصعب ان تزوّد جيشك بما يكفيهِ من المؤونة والذخائر والآلات في زمن الحرب

(١١) يجب على الملوك ان يجتهدوا في جذب قلوب الجند وازدياد محبتهم لهم . فاجعل جنودك سعداء مستريحين فيحبوك ولا يتأخروا الى الوراء في ساعة يفيدك فيها ان يضحوا حياتهم حبًّا فيك وحرصًا على سلامتك . واعلم ان الجنود يبيعون ارواحهم الغالية بمرتبات قليلة تعطى دائمًا في مواعيدها واذا لم تسر معهم على هذه الخطة فانهم يضنون في ساعة شدة ان يبيعوك ارواحهم بثمن اغلى قيمة واسمى

(١٢) يجب ان تعلم يا بنيَّ ان بيت مال الحكومة هو ملك الامة وليس مقام السلطان او الامير تجاهه الاَّ مقام الحارس الامين على ما فيه . فاذا ابتدأ الحاكم ينفق المال المودع عنده على مصالحه ومطالبه الخصوصية فانهُ يكون خائنًا لمن ولّوه الامانة وسلموهُ القيادة واعتقدوا فيه الاستقامة . ومن المقرر المعلوم ان الخائن لا قيمة لهُ في اعين الامة مطلقًا وانهُ مبغض عند الله وعند الناس اجمعين . ويجب ان يكون بيت المال دائمًا ممتلئًا لان ضعف الحكومة يظهر في قلة مالها اكثر من ظهوره في شيء آخر . كذلك يلزمك ان تدقق في ضروب المصروفات والايرادات وكل ما يزيد يضم على بيت المال بالتوالي ويجب عليك ان تعمل كل ما في امكانك من الوسائل لزيادة ثروة بيت المال لكي تتمكن من انجاز الاعمال التي تريد انجازها سواء كانت سياسية او حربية او تجارية او صناعية او تعليمية في الاوقات المناسبة لها لان الزمن يا بنيَّ يحتاج الى كل هذه الاعمال والسير على هذا النهج القويم لكي تعيش آمنًا مطمئنًا قويًّا عزيز الجانب "

وهذه الوصية مرآة تظهر فيها صورة هذا الامير الكريم ومبلغ حكمته وحنكته ودستور يليق بملوك المشرق ان يتخذوا احكامهُ نبراسًا لهم في سياسة بلدانهم

وفي الاسبوع الثالث من شهر سبتمبر الماضي اصيب بشلل في الشق الايمن وفي الثامن والعشرين منهُ شعر بدنو الاجل فدعا اليه اهل بيته وكبار رجاله فلما مثلوا بين يديه خاطبهم بصوت ضعيف لكنهُ واضح جليٌّ قائلاً

" اذا شاخ الملك وتولاهُ الهرم وادركهُ الاجل عين من يخلفهُ على عرشه فأُريد تعيين من يخلفني منذ الآن . فانظروا فيما بينكم من ترونهُ اهلاً لذلك واخبروني به "

فاجابوهُ وعيونهم مغرورقة بالدموع انهم يريدون حبيب الله الذي مارس سياسة الامارة وتضلع منها مدة ثماني سنوات . فاوعز حينئذٍ الى حبيب الله ان يتقلد سيفهُ وحمالتهُ المرصعة بالجوهر الكريمة واعطاهُ سجلاً كبيرًا يتضمن وصيتهُ وامورًا تتعلق بادارة شؤون الامارة . ثم امر باقي بنيه ان يعترفوا بالامارة لاخيهم الاكبر وانصرف الجميع من حضرته . وما لبث بعد هذا ان انتابهُ النزع وفاضت روحهُ الى رحمة ربه في غرة اكتوبر لكن خبر وفاته لم يعلن الاَّ في ٣ منهُ